

من هم السابقون ومن هم اللاحقون ؟

« فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين »

العنكبوت / ٣٩

دكتور سعيد اسماعيل على

صحيح أننا من نسل العرب المولعين بالتفاخر بالأنساب وسالف الأجداد لكن ما لا يقل عن ذلك صحة أن حديثنا الحالى لا ينبغى أن « يصنف » فى هذه الفئة أو تلك ٠٠ فقط « الحقيقة التاريخية » التى يجب أن تبرز وتؤكد حتى لا ترتفع أعلام دولة على غير أرضها وحتى لا « تختلط الانساب » وتغم الرؤية فتضيع معالم الطريق !

ان الذى يؤرخ لحركة الفكر التربوى فى مصر المعاصرة منذ أول السبعينات يستطيع أن يلمس أن هذا الفكر باعتباره « غصنا » من شجرة كبيرة هى المجتمع المصرى ، فقد سرت عليه وفيه قواعد وقوانين واتجاهات حركة التطور الاجتماعى فى تلك الحقبة المفزعة حقا ٠٠

وإذا كانت سياسة « الانفتاح » قد بدأت بشكل واضح بعد حرب رمضان ١٣٩٢ هـ (أكتوبر ١٩٧٣ م) ، فان ساحة الفكر التربوى قد عرفت الطريق إليها قبل ذلك ٠٠ فلا تمر شهور تشكل كسور العام الا وتفتح أبواب كلية جديدة للتربية ٠٠ كان المهم هو « اللافتة » والطلاب ٠٠ أما المعامل والأجهزة والمدرجات والمكتبات وأعضاء هيئة التدريس والساحات وغير هذا وذاك من مقومات العملية التعليمية ، فقد كان غائباً تماماً ٠٠٠

كان ظهور كليات (المعلمين أولاً ثم التربية بعد ذلك) فى الاسكندرية ثم فى طنطا والمنصورة خطوة أسعدت القلوب ٠٠ لكن عندما تلتها خطوات الزحف التربوى « التتارى » بدأت الأيدى توضع على القلوب هلعاً وخوفاً ٠٠ لم تكن المسألة خشية الخائفين من توسيع دائرة النفع التربوى بقدر ما كان هلعهم من « المسخ التربوى » .

انها قصة طويلة لا بحجم الزمن فهو قصير للغاية لكنها طويلة بحجم ما حملته من نكبات فكرية ونوائب أخلاقية - ولا نبالغ اذا قلنا و « فضائح » جامعية !! .. وليس هنا مكان روايتها ، فقط ما نريد الاشارة اليه هو أنه فى الوقت الذى شهدت فيه التربية فى مصر « ازدهارا كميا » فى أعداد الطلاب والكليات وبداية « تكاثر » أعضاء هيئة التدريس لم نشهد فى المقابل ازدهارا فكريا تربويا !

كانت قنوات التعبير عن الفكر التربوى تسير فى شعب ثلاث .

أولها : الكتب .

ثانيها : رسائل الماجستير والدكتوراه .

ثالثها : البحوث والدراسات .

استهدف الانتاج الفكرى فى الشعبة الأولى « الطلاب » ، ولم يكن هذا عيبا بطبيعة الحال ، بل انه ضرورة تعليمية لابد منها ، لكن الذى يقلب فى الكم الأكبر من هذا النوع - وخاصة فى السنوات الأخيرة. وعندما غلب عليه شكل « المذكرات » - يستطیع أن يلمس بكل وضوح أن هذا النوع قد أصبح لا يستهدف «تعليم» الطلاب بقدر ما أصبح يستهدف « اثناء » أعضاء هيئة التدريس وحل مشكلاتهم الخاصة والأسرية كمثال الحصول على شقة أو سيارة أو الانفاق على الأبناء فى مدارس اللغات ذات المصروفات الباهظة أو ما شابه هذا أو ذاك !

من هنا كان « التدنى » .. ومن هنا كان التكرار واختفاء الابداع

وغياب الابتكار .

أما الانتاج الفكرى فى الشعبة الثانية فله قصة أخرى سنمسسك عن الكلام منها الآن حتى لا « نحرق » الأوراق : ونرجئها لحديث آخر مستقل حتى نشبعها تحليلا وتفصيلا .

ونجىء الى الشعبة الثالثة ألا وهى البحوث والدراسات التى يقوم

بها أعضاء هيئة التدريس والتى تستهدف فى معظمها الحصول على مرتبة

علمية أعلى كأستاذ مساعد أو أستاذ .

وهذا النوع من الانتاج الفكرى كانت له أشكال ثلاثة :

الأول : بحوث ودراسات تنشر منفصلة لدى ناشر أو على الآلة الكاتبة محدودة العدد لا يدري بها أحد الا اللجنة الثلاثية التى تفحص الانتاج العلمى .

الثانى : أبحاث ودراسات تقدم الى مؤتمرات ، وتلك عادة ما تنشر عن طريق الجهات المنظمة للمؤتمرات .

الثالث : بحوث ودراسات تنشر فى « دوريات متخصصة » . وهذا الشكل هو بيت القصيدة فى مقالنا الذى نريد أن نتحدث عنه . فماذا كان الموقف فى العام ١٩٧٠ / ١٩٧١ حينما ظهر لأول مرة الشكل الحالى لكليات التربية فى مصر بتوحيد كليتى التربية والعلمين بجامعة عين شمس فى كلية واحدة باسم كلية التربية صارت نموذجا نمطيا سارت عليه كل الكليات بعد ذلك ؟

كانت هناك مجلة (التربية الحديثة) التى كانت تصدرها الجامعة الأمريكية أقدم مجلة تربوية ، وكان يشرف عليها د . أمير بقطر ، وبحكم موقع المجلة وجهة التمويل ، كانت بوقا للثقافة الأمريكية بصفة عامة والتربية الأمريكية بصفة خاصة . كانت جزيرة منعزلة عن المجتمع المصرى . ولم يكن بها من « المصرية » الا الأسماء والحروف ، لكنها كانت غير ذلك فى الفلسفة والأهداف ، ولم تكن بحكم حجمها مكانا لنشر الأبحاث والدراسات المطولة والمعمقة الا فى القليل النادر .

لكن الرجل الذى كان يقف وراءها كان قد توفى فى أواخر الستينات ولذا لم تعمر بعد ذلك طويلا ، وكان عام ١٩٧٢ هو عام اختفائها من الساحة .

وكانت هناك « صحيفة التربية » التى تصدرها رابطة خريجي كليات ومعاهد التربية صاحب الثقل الأول فيها اسماعيل القبانى . ومنذ الأربعينات وهى تقوم بدورها كمدرسة لفكر القبانى بكل توجهاته وأبعاده . وحملت صفحاتها مقالات لأعلام التربية فى مصر اسماعيل القبانى ، عبد العزيز القوصى ، أبو الفتوح رضوان ، فريد أبو حديد ، محمد فؤاد جلال ، الهادى عفيفى ، محمد الغنام . . . الى غير هؤلاء من أساتذة كرام .

وبفعل « ضيق ذات اليد » فى عدد الصفحات اضطرت المجلة فى فترات قصيرة الى نشر ما هو أقرب الى « المقالات » السريعة الخفيفة منها الى الدراسات والبحوث الطويلة العميقة .

ثم كانت هناك كذلك مجلة « آراء » التى تطورت عن مجلة « تنمية المجتمع » و « الثرية الاساسية » وفقا لتغير اسم المؤسسة التى تصدرها وهى المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى بمرس اللبان . كان حظ هذه المجلة متقدما للغاية عن سابقتها ، فالتمويل مضمون وكبير ، والصفحات لا شح فيها وانما تكثر وتوسع لعديد من البحوث الجادة الجديدة . . . كانت حقا نافذة مشرفة . . .

ولكن . . . ولا بد من (لكن) هنا . . . هل يمكن أن يغيب عن نظر الملاحظ المذاق الصفة (الأولية) للمجلة ؟ وماذا يعنى هذا ؟ انها نفس الثغرة التى يستطيع القارئ أن يلمسها فى مطبوعات ومنشورات (اليونسكو) ، ففى غالب الأحوال هناك حرص واضح على ارضاء (الجميع) ! وهناك حرص واضح على تجنب المسائل الخلافية والقضايا الساخنة والموضوعات الحادة . . . وعندما يكون هذا هو (التوجه) الحاكم يجيء الكلام فى الغالب لا لون له ولا طعم . . . فهنا محاولة (الحياد) . . . والحياد فى الفكر . . . (هروب) من المسئولية . . . لأن مسئولية الفكر أو الباحث هى أن يكون صاحب (موقف) شكرى به يقيم ويحلل ، وفى ضوءه يشرح ويعلل ، وعلى هديه ينظر ويجرب !

ثم انها أيضا كانت محصورة فى تخصص معين بحكم تبعيتها لجهاز لبحر الامية وتعليم الكبار . . .

ولم يكن لأية كلية أى دورية متخصصة باستثناء « حولية كلية البنات » التى كانت تظهر لماما وبحكم اتساع دائرة تخصصاتها ، لم تحظ الترتيب فيها الا بشعاع ضئيل للغاية .

ويجىء عام ١٩٧٢

فى ذلك العام بدأ كاتب هذه السطور يفكر فى استحداث قناة جديدة . . .

نافذة لنشر البحوث المطولة المتخصصة العميقة ، وكان بذلك أن ظهر « الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس » عام ١٩٧٣ .

ظل هذا الكتاب وحده فى الساحة طوال عشر سنوات حيث نشر لعشرات من الأساتذة الكبار الآن منذ أن كانوا فى أوائل الطريق - أبو الفتوح رضوان ، أحمد اللقانى ، أمال مختار ، حامد الفقى ، حامد زهران ، حسان محمد حسان ، طلعت منصور ، عبد السلام عبد الغفار ، عبد الغنى عبود ، محمود أبو النيل ، محمود الناقا ، نبيل عامر ، ، نبيل نوفل ، فؤاد أبو حطب وأحمد عبيد . . . صف طويل لا تسعنى الذاكرة بذكر أسماء أصحابه وهم والحمد لله أكثر . . .

وكان هذا الكتاب بحكم الطبيعة التطوعية له متحررا من الضغوط الخارجية بعيدا عن الأغراض التجارية .

وبعد عام واحد من صدور الكتاب ، شهدت ساحة الفكر التربوى ظهور مجلة متخصصة فى محو الأمية وتعليم الكبار هى (تعليم الجماهير) ولكنها لم تستمر طويلا فى مصر ففى سنة ١٩٧٨ على وجه التقريب انتقلت الى بغداد . . .

ولن أنسى أبدا تلك العبارة التى استقبلنى بها المرحوم الدكتور أحمد زكى صالح عندما أهديته العدد الأول من الكتاب السنوى : « براقو » . . . لقد حققت ما عجزنا نحن عن تحقيقه منذ عشرين سنة . . .

لقد كان يشير بذلك الى المشروع الذى حاوله الدكتور يوسف مراد بعد توقف المجلة التى كان يصدرها باسم (علم النفس) فى أوائل الخمسينات ، حيث أصدر عام ١٩٥٤ « الكتاب السنوى فى علم النفس » فقد كان هو المجد الأول والأخير .

وفى كلية التربية بمكة حيث تزاملنا أنا والدكتور محمد الجوهري نائب رئيس جامعة القاهرة وأستاذ الاجتماع المعروف ، أبدى اعجابه بالكتاب ، فكان أن صدر بعد ذلك مشروع مماثل عن أساتذة الاجتماع وهو الكتاب السنوى فى علم الاجتماع . . .

وأيضاً بعد صدور كتابنا بعامين ، بدأت جمعية علم النفس تصدر الكتاب السنوى فى علم النفس الذى سار بطيئاً للغاية الى أن تولى أمره الصديق الحميم د . فؤاد أبو حطب فاستوى على عسوده وانطلق بالكتاب عملاقاً يدعو الى الفخر والتقدير .

وفى عام ١٩٧٨ بدأت كلية التربية بجامعة عين شمس تصدر مجلتها وبحكم تعبير المجلة عن التخصصات المتعددة بالكلية وكثير منها « أكاديمية » فقد احتلت الدراسات التربوية فيها مكاناً صغيراً نسبياً .

وفى أوائل الثمانينات بدأت مجلة كلية التربية بالمنصورة التى ظهرت متفرغة تماماً للدراسات التربوية .

- وإذا كانت « التربية الحديثة » قد اختفت
- وإذا كانت « تعليم الجماهير » قد هاجرت
- فإن مجلة « آراء » قد اختفت هى الأخرى

وفى عام ١٩٨٢ - وكما رويت فى العدد الأول - عاونت مجموعة من تلاميذى فى إخراج مجلة خاصة بهم ، فكان أن تحملت بكل السرور والارتياح مسئولية التجسيد العملى للمشروع فى العدد الأول من المجلة ، مسئولية كاملة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، حتى إذا اطمأن قلبى الى وقوفها على قدميها تركتها لتسير فى الطريق الذى أرادوه لها أيضاً بكل الترحيب .

وعندما أصدرنا « دراسات تربوية » سنة ١٩٨٥ كان لابد أن تتغير وظيفة شقيقها الأكبر « الكتاب السنوى » ، فكان أن بدأ يختص بقضية واحدة تدور حولها بحوث ودراسات الكتاب ، فكان مجلداه التاسع والعاشر عن (ديمقراطية التعليم فى مصر) ٠٠ وكان مجلداه الحادى عشر والثانى عشر عن (التعليم فى المملكة العربية السعودية) حيث وصل عدد صفحاته الى ما يقل قليلاً عن الألف (١٠٠٠) صفحة .

وعندما اشترطت اللجنة العلمية الدائمة للترقيات أن يكون هناك حد أدنى من البحوث المنشورة بدوريات علمية متخصصة ، بدأ سوق الفكر يشهد

« دراسات تربوية »

ازدهارا فجائيا فى المجالات التى تصدرها كليات التربية وان كان كثير منها يكاد يخرج فى شكل متواضع على الآلة الكاتبة ، لا يكاد يعلم به أحد الا فى دائرة محدودة للغاية .

•• وهكذا تستمر المسيرة •• التى تحتاج الى تقويم حقيقى ، وحبذا لو نهض باحث يتفرغ لهذه المهمة .

من يحيى الأرض بعد موتها ؟

نحن نؤمن ايمانا لا تشوبه شائبة بأن الله هو الذى يحيى ويميت «ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله » . العنكبوت آية ٦٣ . لكن ما الأرض التى ندب فوقها ونسعى هى التى نريد ونقصد انها •• أرض الفكر التربوى .

اننا عندما أصدرنا هذه المجلة ، لم يكن هدفنا هو مجرد اضافة «كم» جديد من البحوث والدراسات الى ما هو موجود •• ولا حتى اضافة «نوع» آخر ، صحيح ان هذا وذاك هما بالضرورة فى قائمة الأهداف ، لكن ما لا يقل عنهما أهمية ، بل لا نبالغ اذا قلنا ، انه يسبقهما فى الأولوية ، هو هدف «النقد التربوى» .

كم من مرة يكتب الكاتب كتابا أو بحثا أو مقالا ثم ينتهى الأمر وكأنه «يؤذن فى مالطة» بل وكأننا نمارس «حوار الطرشان» !!

لطالما يستبد بى التساؤل : ألم يحظ ما أكتبه - مثلا - بتقدير ورضا «س» أو «ص» من الزملاء ؟ فلماذا لا يسجل هذا التقدير ومبرراته وجوانبه حتى يتدعم رأى الكاتب وحتى يقتدى به الآخرون ؟ ألسنا نعلم طلابنا أن «الاثابة» طريق أساسى فى التعليم ؟ لماذا بالله لا نمارسه مع أنفسنا ؟

وكثيرا ما يستبد بى تساؤل آخر : ألم يحظ ما أكتبه - مثلا - بضيق وسخرية «س» أو «ص» من الزملاء ؟ فلماذا لا يسجل سبب ضيقه مما هو مكتوب وثغراته ومثاليه وعيوبه حتى يتلافها الكاتب فيما بعد أو يعيد شرح

وجهة نظره فلعله أجمل حيث يجب التفصيل ولعله أغمض حيث يجب التوضيح ، ولعله أسرع حيث يجب التأنى ؟ وكذلك حتى يحذر كتاب آخرون من تكرار الخطأ والوقوع فى نفس المثالب والعيوب . ألسنا نعلم طلابنا أن « العقاب » - فى صورته المهذبة - وسيلة ناجحة للتعلم والتعليم ؟ فلماذا بالله لانمارسه مع أنفسنا ؟

ان المرء لا يجد أمامه الا عدة احتمالات كل واحد منها أسوأ من الآخر، ولا أملك الا الدعاء الى الله بأن تكون كلها خاطئة .

فلاحتمال الأول ، أن أحدا لا يقرأ لأحد . . حيث يظل (الطالب) هو الزبون الوحيد لأنه « مكتوب » عليه أن يقرأ ما يقدم له « مكتوبا » تحت تهديد الامتحان وسيفه البتار !

الاحتمال الثانى ، أن « الآخر » يقرأ ، ولا يملك من الفكر والقدرة والثقافة ما يمكنه أن « يفعل » بما يقرأ « بالمعية » أو « الضدية » فالألوان تستوى لديه الأبيض مثل الأسود ، والأخضر مثل الأحمر .

الاحتمال الثالث ، أن « الآخر » يقرأ لكنه لا يملك الشجاعة الكافية لأن يكشف عما رآه من عيوب .

والاحتمال الرابع ، أن « الآخر » يقرأ فيجد ما يستحق الاعجاب لكنه يحجم عن التعبير عنه حتى لا تتدعم مكانة الكاتب فيكبر ويظهر أكثر فأكثر .

ترى - ما النتيجة التى تحدث عندما تكتب ثم لا تسمع صدى لما تكتبه ؟ الأخطاء تتكرر . . الاحباط يزحف . . وربما غير هذا وذلك . . أن يتصور الكاتب أنه يأتى دائما بما لم تأت به الأوائل ، فيزداد غرورا ويعلو كبيرا فى نظر نفسه فقط بينما يظل صغيرا أمام الآخرين مهما مرت به السنون والأعوام ومهما علت به مراكز الادارة ومواقعها !

وما لا يقل عن ذلك سوءا : ضعف قدرة الانتاج الفكرى على أن يحدث « تراكما معرفيا » حقيقيا الذى هو سبيل هام للتطور والتقدم . .

من هنا كان الحاحنا على النظرة النقدية ..

ومن هنا كان حرصنا على القول بأن الفكر الذى يصدر عن صاحبه
ثم يقابل بالصمت الدائم ، هو فكر ميت .. أرض موات لا تنبت كلاً ولا عشباً ،
ولا زيتوناً ولا نخلاً !

النظرة النقدية من شأنها أن تثير الحيوية ، وتحفز على الحوار ،
ولعلنى لا أذيع سرا اذا صرحت للقارىء بأئنى تعمدت أن تجيء مقالتى
الأولى فى العدد الأول « درس فى أصول التربية » فى صورة « استفزازية »
حتى يتحرك « الماء الآسن » .

ولا أنكر أذنى تلقيت ردود فعل غير قليلة .. لكنها كلها كانت «شفوية»
لقد انهيت المقال بتساؤل : (هل من مبارز) ؟ ولم يعلن عن أحد ، فهل
يعلن الحكم عن فوزى بالضربة القاضية ؟ أو هل يعلن عن فوزى « بالتزكية » ؟

ان هذا هو الفوز المكروه الذى لا أتمناه ولا أرغبه .. اننا نرنو الى
النضال الفكرى ، وأننا لنسعى الى العراك العلمى .. هو فى حد ذاته متعة
مهما كبدتنا من آلام ومشاق .. لقد قرأنا منذ سنوات عن مسلسل بعنوان
« العسل المر » وأننا هنا نسمى هذا العراك المطلوب بالعكس من ذلك « الملح
الحلو » اذا صح هذا التعبير أو ما شابه !

ومع ذلك فانا لم نفقد الأمل بعد ..

بل ان هناك لبصيص من نور مهما كان خافتا ..

لقد نشرنا دراسة الأستاذ محمود أمين العالم ، وهو مفكر كبير تناول
فيها كاتب هذه السطور بالنقد العنيف .. لكنه كان منهجيا ودقيقا وعلميا
لنعلم بذلك للناس عمليا ، أننا نسعى وراء النقد حتى ولو على أنفسنا ، وأننا
لا نخضب منه مادام منهجيا وعلميا لا يتناول الجوانب الشخصية ويلتزم
بأداب الحوار .

وبنفس الدافعية كتبنا مقالنا فى العدد الثانى مناقشة لدراسة للدكتور

عبد السميع سيد أحمد فى العدد الأول ، وكان رد الفعل والحمد لله طيبا . . .
فلم يغضب الزميل ولم يحتج ، بل لقد وعد بمواصلة الحوار ونحن نسجل هذا
هنا على الملأ حتى نحفزه على التنفيذ !!

وفى العدد القادم يجد القراء دراسة للدكتور عبد الله محمد إبراهيم
بتربية الاسكندرية ينتقد فيها دراسة الأستاذ العالم بالعدد الأول . . .

وقد وعدنا الأخ الكبير د . فؤاد أبو حطب بمناقشة الفكرة التى أوردها
د . سيد عثمان فى العدد الأول ، كان من المقرر أن تنشر فى العدد الحالى ،
لكن ظروفنا قهرية حالت بين د . فؤاد وانجاز الدراسة ، وندعو الله أن يتمكن
من ذلك فى العدد القادم باذن الله . . .

لكننا لا نقنع بهذا وحده . . . اننا نطمع فى المزيد ، أن هنا بابا هاما
للنقد التربوى تفتقده ساحة فكرنا نلج على الزملاء أن يلجوه . . . ألا وهو
(نقد الكتب) . . .

ان كثيرين يتساءلون : لماذا لا ننشر عما يسمى بـ (المراجعات)
الخاصة بالكتب الجديدة ؟ وجوابنا هو أنا لا نريد أن نكرر ما يحدث حاليا
من الوقوف بالأمر عند حدود « العرض والتلخيص » ، فتلك مهمة دور الكتب
والمكتبات والناشرون ، أما عندما يكتب « باحثون » فلا بد ألا تكون المسألة
مجرد (عرض وتلخيص) ، بل لابد أن تتحول الى (نظرة نقدية) . . .

وحتى العدد الثانى لم يتقدم الينا أحد بشيء من ذلك !
اننا نقدر ونفهم تماما العلة وراء ذلك !

فأنت اذا قلت أن الكتاب الذى كتبه فلان يعيبه كذا وكذا ، فسوف يعتبر
ذلك « هجوما شخصيا » عليه ويخاصمك ، ويقاطعك !!

ولأن الجمهرة الكبرى من الممارسين الحقيقيين للبحث هم ممن لم
« يتأستدوا » فانهم يخشون على أنفسهم من غضبه الاخرين وخاصة الكبار!

لكننا نؤكد مرة أخرى ، أن النقد عندما يكون منهجيا علميا مدعما

بالموثائق والأدلة والبراهين ، فإنه سيفرض نفسه بلا غضب ولا حساسية ،
بل ان الذين سيغضبهم هذا ، سيسبئون الى أنفسهم ويخسرون كثيرا ٠٠

وعند اقتحام مجال جديد لا بد من تضحية ٠٠ والتاريخ عادة لا يسجل
الا لهؤلاء الذين يرتادون الأفاق الجديدة ويتحملون المخاطر وتسيل من أيديهم
الدماء ويتصبب من جلودهم العرق ٠٠

أما هؤلاء الذين يكررون ٠٠ أما هؤلاء الذين يقنعون بدور الظل ،
فالتاريخ يطويهم ولا يقف عندهم أبدا ٠

فمن يريد أن يقتحم الجديد ويطرق الحديد ؟

دراسات فى المناهج وطرق التدريس

أصدرت (الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس) العدد الأول من
مجلتها (دراسات فى المناهج وطرق التدريس) حيث حوت مقالات ودراسات
للدكاترة / أحمد المهدي عبد الحليم (وليم عبيد - صبرى الدمرداش -
حسين غريب - مجدى عزيز - نبيلة زكى - محمود أبو زيد - محمد سعد -
عايدة عبد المقصود - مصطفى عبد السميع ٠

و (دراسات تربوية) تهنئ الزملاء الذين قادوا هذا العمل العلمى
المتماز فخرج بهذه الصورة المشرفة ٠